قصة قصيرة

العصفور الصغير

بقلم: ابو احمد الزعتر

قال ـ هل سقط محور ... بايدي الفاشيين ؟

قلت ـ لا لم يسقط ! من قال لك ذلك ؟

قال ـ سمعت انهم اطبقوا عليه واحتلوه .

قلت ـ الرفاق يقاومون تقدم الفاشيين من الشرق والجنوب والغرب بكل بسالة ، واعتقد انهم بحاجة الى نجدة عاجلة لان « دشمتهم » تتعرض لضغط هائل ، لا سيما وان كل المنطقة المحيطة بهم اصبحت بايدي الفاشيين .

قال ـ لا فائدة من ارسال اية نجدة لان المحور قد سقط منذ الصباح الباكر بايدي الفاشيين .

قلت ـ لا لم يسقط محورهم ! يجب ان لا نعير اذانا صاغية للاشاعات ... ارسل معي ثلاثة عناصر من تنظيمكم ومعي ثلاثة لنكون مجموعة تسند الرفاق .

كان هذا الحوار يدور بين كادرين من منظمات المقاومة في تل الزعتر في شهر تموز ١٩٧٦ ابان الهجوم الفاشي الوحشي الانعزالي على مخيم تل الصمود . وبينما هما في حوارهما هذا أقبل احد الرفاق من (...) واسمه صالح .

قلت ـ اصحيح يا رفيق صالح ان محوركم سقط .

صالح ـ لا لم يسقط ... وها انذا قادم من هناك ... لكن رفاقنا عددهم خمسة فقط ويواجهون ضغطا انعزاليا كبيرا .

قلت ـ (موجها حديثي للاول) ـ ألم اقل لك ان محورهم لم يسقط وانه يلزمهم نجدة سريعة ؟ (ثم وجهت حديثي لصالح) .

ـ وانت لماذا اتيت اذن ، طالما ان عدد الرفاق هناك خمسة فقط ويواجهون ضغطا شديدا ؟ تعال معي لنذهب كي ننجدهم مع هذه المجموعة .

صالح ـ (متلعثما) هيا بنا .

ثم انطلقت المجموعة من داخل المخيم نحو المحور وسط دوي قذائف المدفعية الفاشية المستمر منذ حوالي شهر ، ليلا ونهارا ... مررنا بمستشفى الهلال بش لما د . عبد العزيز مشجعا ... تابعنا سيرنا الحذر بين ازقة المخيم الضيقة الى ان وصلنا طرف المخيم المكشوف للعدو الفاشي من الشرق (تلة المير) ومن الجنوب بنايات المصانع العالية المتمركز فوقها عدد من الفاشيين

توقفت المجموعة لتدرس كيفيه اجتياز الشارع المكشوف على العدو الفاشي والقفز الى الجهة الاخرى للوصول الى الخندق المؤدي للدشمة المطلوب نجدتها .

قفز رفيقان من المجموعه الى الامام فانهمر الرصاص عليهما بغزارة لا تصدق من تلة المير المشرفة بشكل جلي واضح ، ومن بنايات المصانع ومن الدشمة ذاتها ... يا الهي اذن فقد احتل الفاشيون الدشمة !!.. سقط الرفيقان احدهما على التراب المكوم على حافة الخندق ... والاخر في منتصف الشارع ... واستمر انهمار الرصاص عليهما .

عندما كنت صبيا في العاشرة ذهبت مع احد اترابي نصطاد العصافير ، كان معه بندقية صيد وكانت مهمتي التقاط ما يصطاد . ابصرنا عصفورا صغيرا ينتقل من غصن الى اخر على شجرة باسقة ... سدد زميلي اليه بندقيته ثم أطلق . فسقط المسكين على كومة من التراب دون حركة ، الا حركة الريش الذي كان يتلاعب به النسيم ... تقدمت من الضحية التي همدت الى الابد فلم اقو على ان امد اليها يدي ... ثم تراجعت راكضا الى البيت ومن يومها كرهت الصيد .

لقد سقط الرفيق بعد ان قفز عاليا على كومة تراب الخندق هامدا دون حركة ، الا حركة خصلة من شعره الناعم الطويل الذي كان يتلاعب به النسيم ... كان صغيرا في الرابعة عشرة من عمره ... نحيل الجسم لا يختلف عن العصفور الصغير بشيء سوى الجعبة التي كانت مثبتة في وسطه والبندقية التي انزلقت من يده وقد لامست اطراف اصابعه اخمصها .

اما الرفيق الاخر الذي سقط وسط الشارع ، فعلى الرغم من غزارة النيران فقد بدأ يزحف نحونا مادا الينا يدا واليد الاخرى متشبثة بالبندقية ... قفزنا نحوه وسحبناه الينا ... حمله رفيقان الى مستشفى الهلال وبقيت وحدي وقد تسمرت عيناي بالعصفور الصغير الذي لا أقوى على الوصول اليه .

فوجئت بصوت د . عبد العزيز اللبدي يشهر مسدسه يريد ان يواجه الفاشيين وحيدا وبالمسدس دفاعا عن المخيم وخوفا من وصول الفاشيين الى المستشفى ...

خفت ان يلقى نفس المصير ، فتشبثت به واعدته الى المستشفى وانطلقت الى دير الراعي الصالح .

كانوا في الخندق قرب الدشمة ... عددهم خمسة يقاومون تقدم الفاشيين ببسالة الرجال ... يتقدم الفاشيون نحوهم من ثلاث جهات كفكي كماشة وتحت جنح الظلام وقبل بزوغ الفجر بعد ان استطاعوا احتلال المصانع المحيطة بهم منذ نهار امس ... بقي عددهم خمسة لان رفاقهم الثلاثة استشهدوا منذ مساء أمس بعد ان قاوم الجميع يوما كاملا كل انواع المدفعية المباشرة والهاونات .

وعند الصباح الباكر استطاع الفاشيون اقتحام الخندق بعد ان كبدهم الخمسة خسائر فادحة ... لكن الرفاق صمدوا حتى اخر طلقة فاستشهد منهم اربعة وانسحب الخامس بعد ان نفذت ذخيرته ... كان الخامس صالح بالذات .

قلت لصالح (بعدها بثلاثة ايام) : لماذا قلت ان المحور لم يسقط ؟

قال : كنت لا أريد ان اثبط العزائم بالقول ان المحور قد سقط . ثم لم اكن اعرف انك جاد بالذهاب مع المجموعة الى المحور الذي سقط بايدي الفاشيين ...

في الزمن الجنوبي الراهن

في اطار سلسلة المحاضرات التي ينظمها المجلس الثقافي للبنان الجنوبي حول « صفحات من تاريخ جبل عامل » القى الدكتور محمد مخزوم محاضرة يوم الخميس الماضي في قاعة اتحاد الكتاب اللبنانيين . تحت عنوان « جبل عامل في العهدين الصليبي والمملوكي » .

وقد قدمت الهيئة الادارية الدكتور مخزوم واعتبرت ان سلسلة المحاضرات بمثابة اطلالة ضمنية على الزمن الجنوبي الراهن في حين ان الموضوع ينتمي الى زمن غابر .

واعتبرت الهيئة الادارية في كلمتها ان المحاضرات تمتاز بايحاء معين يحمل على المقارنة الفورية بين حاضر ليس للجنوب اللبناني فحسب بكل لكل التراث العربي . وبين ماض لجميع هذا التراث وللحضارة التي تأسست عليه وانطلقت منه الى جهات الارض جميعا . ثم القى . مخزوم محاضرته ومما جاء فيها :

على الرغم من الصيغة الدينية التي اتسمت بها الحركة الصليبية وعلى الرغم من انحياز بعض نصارى لبنان الى جانب الصليبيين فالتاريخ الاجتماعي يرفض اعتبارها انقساما دينيا او حربا طائفية . السبب الحقيقي لوقوف هؤلاء النصارى الى جانب الصليبيين يرجع في اساسه الى عاملين اثنين :

اولا : ان نمط الانتاج الاقتصادي في ذلك الوقت كان يتخذ شكلا اقطاعيا او لهذا كان من مصلحة اسياد لبنان من المسيحيين بما لكلمة السيد من مدلول اقطاعي ان يجبروا اتباعهم من الوقوف الى جانب الفاتحين الجدد الذين عملوا على تغريرهم طمعا في كسب اراض جديدة يضمونها الى اقطاعاتهم على حساب ولاة وحكام الدولتين الفاطمية والسلجوقية .

ثانيا : ان جوهر العلاقات الاجتماعية التي كانت سائدة في مجتمعات العصور الوسطى هي الرابطة الدينية لان المعنى الحقيقي للقومية لم يكن واضحا في هذا الوقت بقدر وضوح الولاء الديني . ولهذا اطلق على هذه العصور تسمية عصور الايمان الديني .

سلطات الكيان الصهيوني تلقي القبض على الشيخ امام في الوطن المحتل

رغم كل العوائق والحواجز .. رغم الاسلاك الشائكة التي تغطي سماء الوطن المحتل وارضه ومصر العرب ، جاء الشيخ امام ليتضم الينا في السجن ، جاء يغني دافعا ومحرضا للنضال ، ولمعرفة اللذة في النضال ولفرس الوعي من خلال الاغنية .

لقد كان غريبا ان نسمع بالعربية من يغني ملحمة استشهاد جيفارا . وتلاحم نضال الطبقات المسحوقة في العالم وفي الوطن العربي ضد قوى الظلام .

كان غريبا ان نسمع بالعربية صوتا مغنيا يسخر بكل جبروت الرجعية العربية وبتحالفاتها ، ويثبت من خلال سخريته ان الجماهير اقوى مهما ساءت الظروف .. هكذا وصل الينا الشيخ امام في الوطن المحتل . وهكذا فهمناه . فانطلق معنا في مسيرة النضال ضد الاعداء .

سار معنا رفيق الاغنية ، كان رفيقنا في الاضرابات . حين تصدح اصواتنا باغنياته واصبح طبيعيا ان نفهم الكثير عن تلاحم الثورة العربية وجماهيرها فكانت اغنية يا فلسطينية « والبندقاتي رماكو ، بالصهيونية تقتل حمامكو في حماكو ، يا فلسطينية وانا بدي اسافر حداكو ، ناري بايدي ، وايدي تنزل معاكو . على راس الحيه وتموت شريعة هلاكو » .

واصبح ضروريا ان نسمع اغنيته : « شرفت يا نيكسون بابا يا بتاع الووترغيت والزيت » .

وشاركنا الشيخ امام مظاهراتنا واعتصامنا . شاركنا في العمل التطوعي بين الجماهير في المخيمات والقرى . وكان يغني دافعا النضال السياسي والقومي والطبقي الى المح عواطف الجماهير التي سمعته وهي الان كثيرة . ثم نهض الشيخ امام عندما كان نظام مصر المعركة . عندما سقط نظام مصر واخذ موقعه العقيقي في الخيانة . نهض الشيخ امام ليؤكد لنا في الارض المحتلة وليغني في مهرجان اسبوع فلسطين ، في جامعة بيرزيت ليغني لنا ونحن نبني حركتنا الوطنية التقدمية ، نهض يغني :

« يا عرب .. يا عرب يا اهل مصر
يا عرب .. يا عرب في اي مصر
وليكمل المشوار .. هم باعوا الجلبية والوطن والبندقية
واستباحوا كل حاجه للخواجه
احنا حاجه وهم حاجه »

اكد لنا الشيخ امام ان النظام خائن وان الجماهير العربية شيء والرجعية بانظمتها شيء اخر .. فالجماهير تعطي للنهاية .. والانظمة الخيانية تركع للخواجه من إجل الفتات .

رحل معنا الشيخ امام في كل هذه الرحلة بين الجماهير كان محرضا كان واعيا . خافت السلطات الخيانية المصرية فاعتقلته . وخاف الكيان الصهيوني فصادر صوته واعتقل كل من يسمع الصوت ، واعتقل كل من يحاول ايصال هذا الصوت .

لقد كان الشيخ امام وما زال مغني نضالنا في الوطن المحتل . رغم اعتقاله في سجن رام الله او سجن نابلس او سجن بئر السبع فهو يغني هناك ايضا انه يقوم بدور الفنان الطليعي في الوطن المحتل .

ابن الجبل ـ الارض المحتلة

« دفاتر المطر »

□ صدر عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر في بيروت ديوان « دفاتر المطر » وفيه اغنيات كتبتها ليلى السايح ما بين عام ١٩٧٠ ـ ١٩٧٨ .

والقصائد ـ الاغنيات ، فيها ما يعالج القضايا العامة باسلوب شاعري ، وفيها ما هو مغرق في ذاتيته . وفي محاولة للاجابة على طبيعة ما جاء تقول صاحبته : « لا احد يسأل المطر عن هويته ، لا احد يستطلع عناوين الغابات » ..